السلوك السوي والمضطرب عند الأطفال: تحديده، وأسبابه، وعلاجه

Normal and troubled behavior in children: identification, causes and treatment

أ. د سامر جميل رضوان* Prof. Dr. Samer J. Rudwan

إن تحديد السلوك السوي والمضطرب هو حجر الأساس لجميع المهن المتعلقة بالصحة النفسية. غير أن هذا التحديد بحد ذاته ليس بالأمر السهل. وقبل البحث عن السبب المؤدي إلى اضطراب أو مشكلة ما، علينا أولاً تحديد الاختلال أو الاضطراب الذي نحن بصددده مهما كان بسيطاً، و معرفة ما يقصد بالضبط بالسلوك السوي (أو السواء) أو العادية أو عدم السواء، قبل تشخيص مثل هذه السلوكيات، سوية كانت أو شاذة. والسلوك- أياً كان- يمكن فهمه من وجهة نظر علم النفس على أنه استجابة لمنبه ما قد سبب هذا السلوك. ولكن إذا أردنا أن نحكم على طبيعة سلوك معين، أي فيما إذا كان السلوك سوياً أو مضطرباً، فإننا نحتاج إلى معيار أو مقياس لنحكم وفقاً له. وعندما نطلق على سلوك ما صفة السلوك السوي أو العادي أو غير السوي، فلا بد من الاستناد إلى معيار معين، نقيس وفقه هذا السلوك، ونطلق حكماً بناءً عليه. وفي حياتنا اليومية، عندما نحكم على سلوك أي شخص نستخدم معايير مختلفة، منها ما هو معيار شخصي، نابع عن قياس تصرفات الآخرين وفق ما نراه نحن لأنفسنا بأنه سوي أو غير سوي، ومنها ما هو معيار اجتماعي، مستمد من التربية والعادات والقيم الاجتماعية. ويستخدم علماء النفس معايير أخرى، بناءً على أسس علمية كالتشخيصات القائمة على الاختبارات النفسية.

أما عند الأطفال، فإن الحكم على سلوك سوي أو مضطرب لطفل ما يزداد تعقيداً بسبب الطبيعة الخاصة لسلوك الأطفال، المتعلقة بمراحل النمو، حيث قد تبدو بعض السلوكيات، في مرحلة ما، طبيعية ولكنها في مرحلة أخرى غير ذلك، وأحياناً بسبب التشابه الكبير أيضاً بين أنماط السلوك غير السوية وأنماط السلوك التي تعد نتيجة للمرحلة العمرية (كسلوك اللعب العنيف عند الأطفال الذكور).

كما أن الوظيفة التي يؤديها السلوك عند الأطفال تختلف عن الوظيفة التي يؤديها السلوك عند الكبار. وهذا ما ينبغي فهمه للخروج الحلقة المفرغة التي قد يقع فيها المربون في هذا المجال. فالأطفال يسعون، من خلال سلوك معين، إلى لفت انتباه الكبار، أي أنهم يبحثون عن اهتمام الكبار بهم، وعادة ما لا يهتم الكبار بالأطفال إذا

* Prof. Dr. Samer J. Rudwan, Department of Education & Cultural Studies, College of Arts & Sciences, University of Nizwa, Oman. Email: srudwan@hotmail.com

كان سلوكهم عادياً، ولكن عند القيام بسلوك ملفت للنظر من خلال التسبب باضطرابات أو تصرفات معينة، فهم يسعون من وراء ذلك لفت انتباه الكبار. وعندما يهتم الآخرون بالأطفال نتيجة هذا السلوك الملفت للنظر فإنهم بهذا يعززون الحلقة المفرغة بصورة لا إرادية، ويصبح الطفل مبرمجاً وفق مبدأ (يكفي في المرة القادمة أن أضرب هذا الطفل حتى أصبح مركز اهتمام الآخرين بي)، حتى وإن كان الثمن هو العقاب على ذلك التصرف. والحل هنا يتمثل في إبداء الاهتمام والرعاية بالطفل حتى عندما لا يكون سلوكه ملفتاً للنظر وتعزيز إنجازاته البسيطة دائماً.

يحتاج الأهل والمربون في تعاملهم اليومي مع الأطفال إلى معايير معينة تساعد في التعرف على سلوك أطفالهم لتحديد ما إذا كان السلوك طبيعياً أم لا، وبالتالي معرفة ما إذا كان الطفل بحاجة إلى إرشاد ورعاية تستدعي تحويله إلى هيئات متخصصة إذا ما دعت الضرورة لذلك.

وبشكل عام، يمكن اعتماد المعايير التالية، وهي مرتبطة بعضها ببعض بشكل وثيق، للحكم على سلوك طفل ما، من خلال الملاحظة والمقارنة:

(1) السن:

قد يبدو سلوك طفل ما في مرحلة معينة من عمره غير سوي، ولكن إذا ما ظهر نفس السلوك في مرحلة أخرى، فقد يكون سويًا. فحين يبكي طفل في عمر الثالثة مثلاً، بسبب عدم حصوله على قطعة حلوى، فإننا نعتبر ذلك طبيعياً، أما حين يصدر السلوك نفسه عن طفل في سن الخامسة عشرة، فهذا سلوك غير سوي. وحين يخاف الطفل الذي يلتحق بالروضة لأول مرة، ويبكي أو يحاول الهرب أو يلتصق بأمه ولا يتركها...، فهذا يعد سلوكاً سويًا، أما إذا ما صدر عن طفل في المرحلة الإعدادية مثلاً، فإننا نعد هذا السلوك غير سوي.

(2) الموقف الذي يظهر فيه السلوك

يعتبر الموقف، أو الإطار، الذي يظهر فيه السلوك محدداً هاماً من محددات السلوك السوي أو غير السوي. فالسلوك الذي قد يبدو لنا مستهجناً قد لا يكون كذلك إذا ما حللنا الموقف الذي ظهر فيه ذلك السلوك، وقد يعتبر ردة فعل عادية على موقف وجد الطفل فيه نفسه. فعندما يرفض طفل في العاشرة من عمره مثلاً إعطاء قطعة حلوى لطفل آخر، فقد يبدو هذا السلوك أنانياً للوهلة الأولى، ولكن إذا ما حللنا الموقف وأدركنا لماذا يرفض الطفل، فقد نجد سلوكه عادياً، نابعاً من كون زميله يملك قطعة أخرى، أو أن الطفل نفسه جائع، أو أن الطفل الآخر قد رفض سابقاً إعطائه شيئاً ما ولا يزال يتذكر ذلك الرفض. وقد يكون عدوان طفل على طفل آخر نتيجة أو ردة فعل على إثارة الثاني للأول بشكل مباشر أو غير مباشر. إذًا، ما قد يبدو في لحظة معينة سلوكاً مضطرباً قد يكون في لحظة أخرى سلوكاً سويًا.

(3) التكرار

المعيار الثالث والمهم الذي يمكننا من خلاله الحكم على سلوك طفل ما بأنه سوي أو مضطرب، هو مدى تكرار السلوك نفسه. فالسلوك الذي يظهر مرة واحدة فقط، أو مرات قليلة متباعدة، لا يمكن اعتباره سلوكاً غير سوي، إلا إذا كان هذا السلوك يلحق أذى شديداً بالآخرين. فعندما يكذب الطفل مرة لينقذ نفسه من حرج معين مثلاً مرة واحدة، لا يجيز لنا إطلاق صفة الطفل الكاذب عليه، ولكن إذا تكرر هذا السلوك أكثر من مرة وفي مناسبات مختلفة، فسيكون هذا السلوك غير سوي.

(4) القيم والمعايير

الأطفال أنفسهم لا يطلقون على سلوكهم أو سلوك بعضهم بعضاً بأنه سوي أو مضطرب، وإنما الكبار هم من يطلق ذلك. وهناك تفاوت كبير في أحكام الكبار نتيجة اختلاف رؤيتهم للسلوك، واختلاف معايير قيمهم الخاصة بهم. فقد ينظر شخص ما لسلوك طفله العدوانية تجاه طفل آخر على أنه شاذ وغريب، في حين أنه قد ينظر إليه شخص آخر على أنه سوي وطبيعي. وكثيراً ما يلاحظ أن بعض الأهل يضحكون ويفرحون لأن ابنتهم تصرخ وتعض وتسيطر على الأطفال الآخرين في حين أن بعضهم الآخر قد ينزعج من هذا السلوك. فموقف الكبار من هذا السلوك يعد إلى جانب المعايير السابقة محدداً هاماً من محددات الحكم على السلوك السوي والمضطرب.

(5) الاستغراب

المقصود بالاستغراب هو أن يكون السلوك ملفتاً للنظر. ومتى ما كان السلوك ملفتاً للنظر فيمكن اعتباره مضطرباً إلى حد ما، سواء كان السلوك (مزعجاً) أو (لطيفاً)، إذ يمكن لطفل هادئ (سهل العناية) أن يكون مضطرباً سلوكياً، تماماً مثل طفل صاخب، وأن يكون خلف الهدوء الشديد أحياناً حزن عميق أو اكتئاب.

أسباب اضطرابات السلوك عند الأطفال

تتنوع الأسباب الكامنة خلف اضطرابات سلوك الأطفال ما بين مشاعر الغيرة والإحساس بالإهمال إلى مشاعر فقدان الأمن. ويمكن إجمال الأسباب الممكنة الكامنة خلف اضطرابات السلوك عند الأطفال في النقاط التالية:

- الغيرة من ولادة أخ جديد في الأسرة.
- فقدان الإحساس بالأمن بسبب تبديل المدرسة أو السكن، أو انفصال الوالدين أو غياب أحدهما بسبب السفر إلخ.
- نقص اهتمام الأهل بالطفل وعدم الاعتراف به وإنجازاته. فالطفل يحتاج دائماً إلى الحصول على اعتراف الأهل به من خلال ما ينجزه من أعمال، حتى وإن كانت من وجهة نظر الكبار غير كاملة، وعلى الأهل عدم التقليل من أهمية ما ينجزه طفلهم من أعمال ولا التبخيس بها.

- الحث المبالغ فيه للطفل من قبل الأهل على مزيد من الإنجاز. وغالباً ما تكمن عوامل لا شعورية خلف ذلك من الأب أو الأم عندما يرغبان بأن يحقق لهما ابنهما ما عجزا هما عن تحقيقه.

ما الذي يمكن فعله لمعالجة المشكلات السلوكية عند الأطفال؟

إن السلوك الذي يتم تجاهله وعدم تقويته أو تعزيزه ينطفئ تدريجياً، بينما يميل السلوك الذي يحظى بالتشجيع والدعم إلى الاستمرار. وليس من الضروري أن يعزز السلوك بالثواب حتى يستمر، بل إن العقاب أيضاً يقود إلى تعزيز السلوك السلبي، حتى وإن كانت النتيجة بالنسبة للطفل هي العقاب الجسدي. فالمهم بالنسبة للطفل هو تحقيق الغاية من سلوك ما بلغت نظر الراشدين إليه. فإذا كان السلوك مستغرباً ونادراً – كأن يستخدم الطفل كلمات نابية أو أن يصرخ ويبكي من أجل تحقيق غاية معينة كالحصول على قطعة حلوى مثلاً – يكفي تجاهل هذا التصرف، وكأننا لم نسمعه أو نلاحظه، ولا نلتفت للطفل أبداً. وهنا، سيدرك الطفل بأن ما قام به من سلوك لا يحظى باهتمام الكبار، لا إيجاباً، أي بالرضوخ لمطالبه، ولا سلباً، أي بضربه أو تأنيبه، وبالتالي لن يعود الطفل إلى مثله لأن سلوكه الأول لم يحقق له النتيجة المنشودة. ولكن، في حال ألحق الطفل الأذى بنفسه أو بالآخرين (كالعدوانية أو السرقة أو الكذب من أجل إلحاق الأذى المتعمد بطفل آخر) فعلى الوالدين هنا التدخل، ومعاقبته عن طريق حرمانه مثلاً من بعض المكاسب، كمنعه من النزهة أو المصروف لفترة طويلة إلخ.

ومسألة الضرب هنا مسألة مهمة في التربية. فليس المقصود بالعقاب هو ضرب الطفل لسلوك قام به. فهناك بدائل كثيرة ممكنة. وعندما يعاقب الطفل بالضرب مثلاً لسلوكه المضطرب، فسيكون قد حقق الغرض المنشود بالحصول على الانتباه. وهنا قد يستنتج الطفل استنتاجاً خاطئاً وهو إعادة نفس التصرف في المرة القادمة للحصول على الانتباه من جديد. وهنا يقع الأهل في فخ الدائرة المغلقة التي يمكن أن تكون مزعجة للوالدين والطفل معاً. عدا عن ذلك، عندما يُضرب الطفل لسلوكه الخاطئ، فإننا لا نقدم مساعدة له في إيضاح السلوك الصحيح. لأن العقاب بالضرب وإن كان يقود إلى إيقاف السلوك المزعج في اللحظة الراهنة، ولكنه لا يعلم الطفل السلوك السليم البديل عن السلوك الذي استدعى العقاب. والمهم هنا، في عقاب الطفل هو التأكيد له على أن العقاب هو بسبب السلوك الخاطئ، وليس لشخصه، وأن نوضح له من خلال القدوة الأسلوب الصحيح للتعامل مع الأشياء. فليس من المعقول مثلاً، أو الاقتداء الحسن، أن يُطلب من الطفل القول إن والده ليس في البيت عندما يتصل أحدهم هاتفياً سائلاً عنه، وهو موجود، ثم يُطالب الأطفال بالألا يكذبوا!!